

بلاغة التقديم والتأخير

– في رواية مرايا متشظية لعبد الملك مرتاض –

د. فرعون بخالد

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة سيدي بلعباس

المعروف أن التقديم والتأخير واحدة من أهم الحالات التي تعتري بناء الجملة، إذ تحدث انقلاباً في نظامها الرتبي فيما يتعلق بالمسند والمسند إليه والقيود المرتبطة بهما. من هنا كان اهتمام النحاة بهذه الظاهرة الأسلوبية ضمن العديد من المباحث المتعلقة بال أسماء والأفعال والأدوات. فبينوا مواطنها وحالات الوجوب والجواز وعدم الجواز. ومن هذه الحدود انطلق علماء المعاني مركزين على الجوانب النحوية لمحاولة الوصول إلى الأسباب والغايات والدلالات والمواقف الكامنة وراء هذه الظاهرة الأسلوبية. وفق هذه النظرة فمبحث التقديم والتأخير إلا إذا استحضرت هذه الرؤية المتوازنة، وهو ما حاولنا التعامل به مع الأساليب التي عرضناها للدراسة والتحليل في هذا الشأن.

أ- تقديم الخبر على المبتدأ:

((رائعة الحياة في جبل قاف))¹، هذه الجملة الخبرية وردت على لسان الشيخ فيما روته عالية بنت منصور، فيما حكمتها بعض الروايات الموثوقة، فالشيخ بعد أن بلغ درجة القطب، ومن عليه بالإشراق، وهب السر الأعظم الذي مكّنه من الطيران من جبل العبادة الذي مكث به تسعين عاماً

إلى جبل قاف، فإذا به يستكشف عالماً جديداً بديعاً عبر عنه بتلك الجملة الخبرية الاسمية.

وما يلاحظ على الخبرية أنها اسمية متكونة من المبتدأ والخبر وشبه الجملة والمضاف إليه، إلا أن النظام الذي سيق في الجملة الفعلية ليس هو النظام المعهود في تقديم عناصر الإسناد، إذ تقدم المسند (رائعة: الخبر) وتأخر المسند إليه (الحياة: المبتدأ) وظل القيد المتعلق بطرفي الإسناد في محله أي في المرتبة الثالثة والأخيرة. هذا الحل في نظام الجملة ليس اضطرارياً، بمعنى أنه من ورائه ضرورة نحوية أو تركيبية ما، إلا أن وراء هذا مسوغات أخرى مرتبطة بالمقام الفكري والعاطفي والمكاني الذي قيلت فيه الجملة، فهناك مسوغات في ذات الشيخ وخارجها هي التي دفعته دفعا وأملت عليه إملاء لتصوير الفكرة بالشعور.

ووفق هذا النمط الأسلوبي الذي عمد إلى خرق نظام الجملة في اللغة العربية فكان الانزياح الذي لم يراع الرتبة التي قررها اللغويون العرب لطرفي الإسناد في الجملة ال اسمية وهما (المبتدأ والخبر). فماذا وراء هذا التقديم للخبر (رائعة) من دلالات ومحمولات؟

- جدة الحياة بمختلف صنوفها ومبارقتها لكل نوع من الحياة في أماكن أخرى غير جبل قاف.
- الروعة والجمال المرتبطة بالحياة في هذا المكان هما من درجة عالية ومتفردة.
- الرغبة العارمة والميل الصريح في ممارسة الحياة والامتلاء بها في هذا المكان وغيره.

- الشعور باللذة والمتعة البالغة في هذه الرغبة الطبيعية المتاحة على غير العادة.
- لو سيق التعبير بطريقة عادية (خير ذو طابع نحوي بلاغي "دلالي" فلا تتم دراسة التقديم والتأخير إلا إذا استحضرت هذه الرؤية مبتدأ + خبر) (الحياة رائعة في جبل قاف). كان ذلك إشارة واضحة إلى روعة الحياة في جبل قاف وفي غيره، لكن ما دام وقع التقديم والتأخير فيكون بموجب ذلك قد خصص وأفرد جبل قاف بالروعة دون غيره من الخبال ومن سائل الأمكنة الطبيعية. وهذا الإحساس بروعة الحياة في هذا الجبل بالذات المستجد في جبل قاف يعني أن الحياة التي كان يمارسها طيلة تسعين سنة في جبل العبادة كان خاليا تماما من كل شعور بالجمال ومن كل إحساس بالسحر والفتنة والبداعة، والفعل التعبدي الذي كان يمارس هناك كان مجردا من كل لذة ومتعة وبعيدا عن قناعة وحب وميل صادقين.

فالروعة في جبل قاف وليس في جبل العبادة، والحياة الغضة الطرية البهية هنا وليس هناك، ولأنس والطمأنينة والسعادة هنا وليس هناك حيث الوحشة والقلق والشقاء.

والذي نسجله حول لفظة المسند إليه المؤخر (الحياة)، أنه جاء مطلقا مجملا غير مقيد ومفصل، فسوق الحياة بهذه الطريقة يجعلنا نفهم أن الحياة المرادة هنا ليست موجهة إلى منحى محدد من مناحيها، وإنما أتت بها وفق هذا النسق التعبيري لتستغرق كل شيء موجود في جبل قاف من جماد ونبات وإنسان، وتشمل كل ما هو مرتبط بالزمان والمكان فيه، وبالأرض والسماء، وبالغيب والشهادة، وبالحسوس والمفكر فيه، بالمأمول والميؤوس.

ب- تقديم المبتدأ وتأخير الخبر:

((أنتم جميعا في الحقيقة لا تحبونها))² ورد هذا السياق في خضم ادعاءات الذين يحاربون ويقتلون ويفسدون ويعتقدون أن كل واحد منهم

يحب عالية بنت منصور: ((أنا أحبها -أنت لا تحبها- أنا أحبها -أنت لا تحبها -أنت لا تحبها وكفى))³ المدعي هو شيخ بني يعضان والمراد بالنفي وبالجملة الأولى التي سقناها للتحليل من طرف الحاضرين المستترين الراضين لهذا التناقض الجامع بين الحب في المكان الذي يقطنه الشخص والإفساد والهدم فيه. الملاحظ في هذا الرد ((أنتم جميعا في الحقيقة لا تحبونها))⁴ أن المسند إليه (المبتدأ: أنتم) في وضعه الابتدائي الطبيعي، والمسند (الخبر: الجملة الفعلية المنفية "لا يحبونها") قد تأخر لأنه يأتي تاليا للمبتدأ الذي حال بينه وبين التقدم للمجاورة المبتدأ ثلاثة عناصر:

- جميعا: التي هي حال منصوبة لأنها بمعنى مجتمعين وليست توكيدا لأنها لو كانت كذلك لتبعت المؤكد.
- في الحقيقة: اسم مجرور بالكسرة الظاهرة سحر ف الجر.

فالجملة الاسمية لو عرضت بدون قيد (الحال) كانت أفادت أن المدعين يغضونها ويكرهونها باستمرار وتواصل، علما بأن الرد (لا تحبونها) كان من جنس ادعاءاتهم ومزاعمهم الباطلة، لكن بحضور القيد المقدم على الخبر نشعر بأن هذا الخلق الخبيث الكره والبغض ليس وليد الصدفة والعفوية وإنما تم عن قصد وبينه بعد اجتماع، ولفظة اجتماع توحي بدورها إلى التواطؤ والاتفاق على الكره والبغض، بمعنى أن الأفعال والسلوك التي يمارسون مدعين بها التقرب إلى حب عالية بنت منصور كانوا يقومون بها بعد تخطيط مشترك وتصميم منتظم وإعداد مسبق.

أبان تقديم الحال عن الحقيقة وكشف الزيف، والتأخير للخبر (لا يحبونها)، نفهم منه أن الحب الذي يصرحون به بعيدا عنهم، عن شخصياتهم، غريب مناقض لأفعالهم.

وفي إطار تقديم الخبر على المبتدأ نسوق هذا المثال: "ومحللة بالشوب الأخضر الأحمر الأبيض أنت"، فنلاحظ في هذه الجملة الاسمية: المسند

المتقدم الخبر المرفوع المحللة)، متبوع بالجار والمجرور (بالثوب وهو صفة) ثم سلسلة من الصفات التابعة للموصوف الثوب: الأخضر، الأبيض، الأحمر). المسند إليه المؤخر (المبتدأ الضمير المنفصل المخاطب: أنت).

إن نظام الجملة الذي ساقه الراوي على لسان الشيخ الأغر نفهم منه أول ما نفهم:

أن الشيخ رأى أول ما رأى في عالية بنت منصور سترها ولباسها، فهو لم ير فيها شيئاً آخر من جسدها أو نفسها من مفاتها أو أخلاقها أن اللباس الذي جللت به والثوب الذي تغطت به هو الذي صدم نظره لأول رؤية فأعمى عينيه بشيء آخر فيها واستعمال لفظ مجللة به اختيار واع ليجمع به القائل بين الستر والجلال بما يحمله من معاني العظمة والقداسة والوقار فهو ثوب لم يصبغ صاحبه بالفتنة والدلال ويطبعها بالجمال والإغراء وإنما وسمها بالعفة والطهارة وما قاربهما.

وذكر صفات الثوب يوحي بأن الثوب ما كان ليجذب نظره لأول وهلة لولا أنه كان مزركشا مزينا بالألوان: الأحمر والأبيض والأخضر بالإجماع حصل، والتعلق وقع بسبب الألوان مما يدل على أن الألوان في هذا المقام مجموعة من الأيقونات التي تنبعث من خلالها طائفة مكثفة من المداليل والقيم التي دفعته لاستحضارها الواقع الذي يفتقد في كافة جوانبه إلى ما وراء هذه الألوان.

— فالأخضر: شوق إلى الحياة المليئة بالنعم والخيرات، وتطلع إلى المستقبل عامر ممتلئ بالهبة والعطاء، بالبر والإحسان والنماء، تلهف إلى الجديد المنعش الباعث لتعاطي الحياة بوعي وامتلاء ورفض

- للحياة الحافلة بالشروع والنعم، بالذبول والجفاء ونبد لكل ما من شأنه أن يعيق الإنسان على النمو والتطور فكر وشعورا وروحا.
- والأحمر: معانقة للتضحية والفداء، ورفض للجريمة والاعتصاب، وكل ما يشين.
- والأبيض: هو السلام المفقود والأمن المأمول المترجى في داخل الذات وخارجها. إن هذه الألوان الثلاثة تمثل فعالية الرمز للأرض والوطن والحياة يراها هذه
- الألوان إلى الحياة العامرة والسلام الأمن والتضحية الصادقة السديدة.

ج- تقديم المفعول فيه(ظرف الزمان):

المطالع المشهد الرابع وبدرجة أقل المشهد الخامس يلقي ظاهرة تقديم المفعول به تسع مرات في المشهد الرابع وفي المشهد الخامس تكررت مرتين. و هذا التكرار حدث بلفظ بعينه هو "الليلة" ما عدا لفظ الآن الذي ورد بمعنى الليلة.

- الليلة ترونها.
- الآن تضيء بوجهها الكريم.
- الليلة أذنت لكم في الأكل من لحم البقرة لأول مرة ولأخر مرة.
- أما شيخكم فسيبله الليلة إلى شيء آخر إنشاء الله.
- ربوتكم الليلة باتت عاصمة لكل الروابي تجسدها تنظر إليها.
- أنت الليلة عروس، وأي عروس؟
- الليلة تقتله الفئة الباغية الفاسقة.

– الليلة بالذات تفاجأ الربوة الخضراء باغتيال إمامها الأبر.

– قتله الليلة الفئة الباغية القاتلة.

– وأما ليلة الغد فاذهب إلى عرس بالربوة الأخرى.

– أما أنت فاذهب الليلة إلى مسجد الطاغوت.

ونلاحظ في كافة النصوص أن المفعول فيه (الظرف الزمني) الليلة قد تقدم لأنه قيد مرتين تأتي بعد المسند والمسند إليه. هذا التقديم يكشف أن الليل هو الأهم وهو الحاسم وهو الأصل وما عداه هو دونه في الأهمية والحسم والأصالة وأن الفعل والفاعل (المسند والمسند إليه) قيمتهما تأتي بعد، فبدونه لا يقعان قط، فانطلاقتهما وتوقفهما حركتهما وسعيهما مقيد بزمن الليل، هو الأمر وهو المقرر والأذن. لا يمكن لهما أن يتحركا خارجه.

وتقديم الليل إشارة إلى أن الناس كان يتطلعون إلى مجيء الليل لتقع فيه كل ما يمكن أن يقع في الصباح والضحى والزوال والعشي والأصيل والغروب. الليل هو موطن الحزن والخوف، مصدر الهلع والفرع، عين المفاجأة والإغارة، لحظة القتل والهلاك، وفي الوقت ذاته هو موقع الفرح والطرب، وممكن الزواج والآزفة، وقت قضاء الحاجات سرا وعلانية، إنه اللباس والمعاش والسكن والعراء رغبة ورهبة فيه ترتقب الآجال وتعد الحياة والموت وترصد جمال مخاضات الأقدار.

ومن الدلالات الأخرى التي يمكن قراءتها من وراء هذا التقديم المتوالي: إن الليل هنا قد يكون من باب المجاز المرتبط بالظلم والشر والشقاء والتوحش والافتراس، ويريد أن يصور من خلاله أن الحياة كلها بمختلف أوقاتها كانت تشبه الليل في ظلامه وما ينجر عن هذا الظلام من آثار

ينعكس بالسوء على النفوس والأرواح، نور الأفعال والمعاملات، والذي يعزز مثل هذا الاحتمال العديد من النصوص في الرواية منها:

((والأفق الغربي الذي خذله ضياء الشمس الشاحب، الآن بدأ
يميل إلى الظلام، يستحيل هذا الليل الطويل إلى ملحمة الظلام. وهو الذي
سماكم الظلام يلتحفكم بأرديته الصفيقة، لا أحد يرى الآخر، لا أحد يعرف
الأخر كل يقتل الآخر. . .⁵)) وقال السارد أيضا ((والظلام بدأ يتكاثر،
وبدأت سدوله ترتخي على الكون لتعمره، بسوادها الصفيق، أعقب السواد
البياض، نسخ الظلام النور، اشتد الظلام الذي يسميكم الظلام. . . لقد
غربت عنك الشمس، ربما إلى الأبد بت تتخبط في هذه الظلمات. . .⁶)).

ويبدو لنا جليا أن تقديم الليلة لم يكن عملا اعتباطيا وفعل أسلوبى
قاصد يتميز بالكثافة والاختزال متنوع الصلات إذ التقديم أضفى على
النص تميزا معينا وأبان عن بعض مقاصد الناص، ودفع بالمتلقي للقراءة
المتعنة للبحث عما وراء التقديم من معاني ومواقف، وصور ومشاهد وهذا
النص دليل على أن الروائي يريد فعلا بالقارئ الوقوف على لفظة الليلة،
علما بأنها وردت في مكانها غير مقدمة أو مؤخرة:

((إنها لليلة حاملة صاخبة عامرة باللذة والسعادة والشراب
والطعام والرقص والعطر والقبل⁷)).

وسيقت هذه الجملة مؤكدة ثلاث مرات: إن (حرف التوكيد) +
الجملة ال اسمية + الخبر (ليلة) المقترن بلام التوكيد، ومن بين مقاصد هذا
النظام الأسلوبى لدفع القوى لتلي وتمثل الليلة وما تتصف به وما يقع فيها.

وفي آخر هذا المبحث ومن خلال دراسة النماذج التي عرضناه للتحليل نستنتج أن:العمد إلى هذا البناء اللغوي المتميز بالعدول والخرق والإفهاك حقق للتركيب خصوصية وثراء دلاليا كما كان ليتحقق لولا أن الروائي لم يلجأ إلى هذا التقديم والتأخير مما يدل أن الروائي كان يعول على البناء اللغوي العميق في الكتابة ورسم المشاهد وتقديم الأفكار وعرض العواطف.

الهوامش :

1 - عبد الملك مرتاض، مرايا متشظية، دار هومة الجزائر ط1/2001، ص:94.

2 - عبد الملك مرتاض: مرايا متشظية، ص:81.

3 -المرجع نفسه: ص81.

4 - المرجع نفسه: ص81.

5 -عبد الملك مرتاض، مرايا متشظية، ص 204

6 - المرجع نفسه، ص 68.

7-المرجع نفسه، ص 221
